حقائقُ عن الحجِّ

إنَّ الحجَّ هو الفريضةُ البدنيةُ الماليةُ الشعائريةُ ، وهي في حقيقتِها رحلةُ قلوبٍ ، لا رحلةُ أبدانٍ ، هي في حقيقتِها رحلةُ نفوس ، لا رحلةُ أشباحٍ ، لأنّ اللهَ سبحانه وتعالى يقولُ :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وكان النبيُّ ﷺ يقولُ : « أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ ، وَبِشَارَةُ أَخِي عِيسَى ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ حَمَلَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ بُصْرَى »[1] .

ومناسكُ الحجِّ مِن شعائرِ اللهِ ، قال تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] .

قالَ بعضُ العلماءِ : « أداءُ الشعيرةِ شيءٌ ، وتعظيمُها شيءٌ آخرُ ، مِن تعظيمِها أنْ تؤدّيَها كما فَعَلَها رسولُ اللهِ ﷺ ، ومِن تعظيمِها أنْ تؤدّيَها بشوقٍ ، وطيبِ نفسٍ ، لا بتَأَفُّفٍ وتململٍ ، ومِن تعظيمِ شعائرِ اللهِ أنْ يؤدِّيَها الحاجُّ ، ويتمنَّى أنْ يعيدَها مراتٍ ومراتٍ » .

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن سعد في الطبقات (١/ ١٠٢) عن أبي العجفاء .

إنّ المشاعرَ التي يشعرُ بها الحاجُّ وهو في المشاعرِ المقدسةِ هي برتقةٌ ينصهرُ فيها قلبُ المؤمنِ ، حتى يتخلَّصَ مِن أدرانِه ، عَوداً به كيومِ ولدتْه أمُّه ، نقيَّ القلبِ ، صافيَ النفسِ ، تلك هي الغايةُ الكبرى مِن الحجِّ ، أنْ يعودَ الحاجُّ كيوم ولدَتْه أمّه .

يقولُ ربُّنا جل جلاله :

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٧] .

مِن أدقِّ ما قاله المفسِّرون حولَ هذه الآيةِ : إنَّ المسلمَ بحجِّ بيتِ اللهِ الحرامِ ، وتعظيمِ شعائرِ اللهِ ، وعقدِ العزمِ على طاعةِ اللهِ ، واتباعِ سنةِ نبيِّه ﷺ تقومُ ، وتَتحقَّقُ مصالحُ المسلمِ في الدنيا والآخرةِ ، وعندئذٍ تتوقَّفُ المعالجةُ الإلهيةُ :

﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

يخلعُ الحاجُّ ملابسَه المَخيطةَ والمُحيطةَ ، والتي تعبِّرُ بشكلٍ أو بآخرَ عن دنياه ، عن حجمِه الماليِّ ، عن مرتبتِه الاجتماعيةِ ، عن مرتبتِه الوظيفيةِ ، بل عن درجتِه العلميةِ ، والدينيةِ أحياناً ، هذه الملابسُ المَخيطةُ والمحيطةُ قد تعبِّرُ عن نوعِ انتمائِه ، إلى أمةٍ ، إلى شعبٍ ، إلى قبيلةٍ ، إلى عشيرةٍ ، فلو بقيَ المسلمُ بلباسِه لبقيَ ملتصقاً بدنياه ، أو بقبيلتِه ، بطبقتِه ، أو بمَنْ على شاكلتِه ، ولكنَّ الإسلامَ لحكمةٍ كبيرةٍ شَرَعَ

اللونَ الواحدَ ، والخلق الواحدَ ، حتى تختفيَ الهُويةُ الخاصّةُ ، ويبدو البشرُ كياناً واحداً ، ومِن ثَمَّ تتعاملُ معهم بدافعٍ إنسانيٍّ خالصٍ ، بعدما ذابت الفروقُ الطبقيةُ ، والهوياتُ الإقليميةُ ، والانتماءاتُ المتعدِّدةُ ، ليبرزَ هذا اللباسُ معنىً واحداً ، هو الإنسانُ على فطرتِه السليمةِ في مواجهةِ خالقِه الواحدِ الديَّانِ .

بعد أنْ يخلعَ الحاجُّ ثيابَه المَخيطةَ والمحيطةَ ، ويرتديَ ثوبَ الإحرامِ ، يدخلُ في أفقِ الممنوعاتِ ، ففي باطنِه ممنوعٌ أنْ يفكِّرَ في شيءٍ يؤذِي الحرمَ ، ومع الناسِ ، فلا رفثَ ، ولا فسوقَ ، ولا جدالَ في الحجِّ ، ومع الحيوانِ ، فلا يُصطادُ ، ولا يقتلُ ، ومع النباتِ فلا يُقطعُ ، ولا يشوَّهُ ، ومع الحجرِ فلا يكسرُ ، ولا يقتلعُ ، هذه الممنوعاتُ التي هي مِن لوازمِ الإحرامِ ، ليكونَ الحجُّ سلاماً دائماً ، قال تعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦ـ٩٧] .

إنَّ الحاجَّ المحرِمَ يُحظَرُ عليه لُبسُ المخيطِ من الثيابِ ، والتطيُّبُ بكلِّ أنواعِ الطيبِ ، ويُحظرُ عليه الحَلقُ والتقصيرُ ، كما يُحظرُ عليه مقاربةُ المُتَعِ التي أُبيحتْ له خارجَ الحجِّ ، كلُّ ذلك ليُحْكِمَ اتصالَه بالله ، وليسعدَ بقرْبِه وحدَه ، بعيداً عن كل مداخلةٍ مِن مُتعِ الأرضِ ، ليتحقَّقَ الحاجُّ أنّه إذَا وصلَ إلى اللهِ فقد وصلَ إلى كلِّ شيءٍ ، وأنّ الدنيا كلَّها لا يمكنُ أن تُمِدَّ الإنسانَ بسعادةٍ مستمرةٍ ، بل بسعادةٍ متناقصةٍ ، ولينطلقَ لسانُه على نحوٍ عَفْوِيٍّ قائلاً : يا ربّ ، ماذا فَقَدَ مَن وَجَدَكَ ؟ وماذا وَجَدَ مَن فَقَدَكَ ؟

وفوقَ ذلك ففي الإنسانِ غريزةُ حبِّ الاستطلاعِ ، فهو في أصلِ طَبْعِه لا يُقبِلُ على عملٍ إلا إذَا عرفَ حكمتَه ، وحقَّقَ به مصالحَه العاجلةَ والظاهرةَ ، ولأنّه يحبُّ نفسَه حباً جمًّا ، وهذا مرَكَّبٌ في أصلِ طبعِه ، ولأنَّ الحجَّ بهذه الممنوعاتِ ، وبهذه المناسكِ التي لا تظهرُ حكَمتُها للوهلةِ الأولى ، لا يلبِّي هذه الحاجَةَ الفطريةَ ، والفكريةَ ، والماديةَ ، لذلك يحتاجُ الحاجُّ إلى درجةٍ عاليةٍ مِنَ الإيمانِ بحكمةِ اللهِ وعلمِه ، ويحتاجُ إلى درجةٍ عاليةٍ مِنَ العبوديةِ له ، ورُوِيَ عن عمرَ رضيَ اللهُ عنه : « تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تَحُجُّوا » .

فالعبادةُ في حقيقتِها تعني خروجَ العبدِ مِن مُرادِه إلى مرادِ ربِّه ، وهذا يبدو جليًّا واضحاً في الحجِّ .

يسألُ بعضُهم : هل مَع هذا التسليمِ المطلَقِ بحكمةِ ما أمَرَنا به إعمالٌ للعقلِ ؟ الجواب : « لا » ، لأنّه لن يكونَ العقلُ حكَماً على النقلِ ، ولكنّه مسموحٌ للعقلِ أنْ يفهمَ حكمةَ النقلِ ، مسموحٌ له أنْ يطيرَ في المجالِ الجوّيِّ الإسلاميِّ ، مسموحٌ له أنْ يسبَحَ في المياهِ الإقليميةِ الإسلاميةِ ، مسموحٌ له أنْ يسبحَ ، ولا يشطحَ .

ويأتي موقفُ عرفةَ . . . فيومُ عرفةَ مِن الأيامِ الفُضلى ، تُجَابُ فيه الدعواتُ ، وتُقَالُ العثراتُ ، ويباهِي اللهُ فيه الملائكةَ بأهلِ عرفات ، وهو يومٌ عَظَّم اللهُ أَمْرَه ، ورفعَ على الأيامِ قَدْرَه ، وهو يومُ إكمالِ الدينِ ، وإتمامِ النعمةِ ، ويومُ مغفرةِ الذنوبِ ، ويومُ العتقِ مِنَ النيرانِ ، إنه يومُ اللقاءُ الأكبرُ بينَ العبدِ المنيبِ المشتاقِ ، وربِّه الرحيمِ التوابِ ، بين هذا الإنسانِ الحادثِ الفانِي المحدودِ الصغيرِ ، والخالقِ المطلقِ الأزليِّ الباقِي

الكبيرِ ، وعندها ينطلقُ الإنسانُ من حدودِ ذاتِه الصغيرةِ إلى رحابِ الكونِ الكبيرِ ، ومن حدودِ قوَّتِه الهزيلةِ إلى الطاقاتِ الكونيةِ العظيمةِ ، ومن حدودِ عمُرِه القصيرِ إلى امتدادِ الآبادِ التي لا يعلمُها إلا اللهُ .

فيومُ عرفةَ يومُ المعرفةِ ، ويومُ عرفةَ يومُ المغفرةِ ، ويومُ عرفةَ يومٌ تتَنَزَّلُ فيه الرحماتُ على العبادِ مِن خـالقِ الأرضِ والسماواتِ ، ومِن هنا قيل : مَن وقفَ في عرفاتٍ ، ولم يغلبْ عـلى ظنِّه أنّ اللهَ قد غفرَ له فلا حجَّ له .

عن جابرٍ رضي اللهُ عنه قال : قالَ رَسول الله ﷺ : « مَا مِنْ أَيَّامٍ عِنْدَ اللهِ أفضلُ مِنْ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ ، فَقَالَ رَجُلٌ : هُنَّ أَفْضَلُ أَم مِنْ عِدَّتِهِنَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللهِ ؟ قَالَ : هُنَّ أَفْضَلُ مِنْ عِدَّتِهِنَّ جِهَاداً فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَمَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، يَنْـزِلُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيُبَاهِي بِأَهْلِ الأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ ، يَقُولُ : أُنْظُرُوا عِبَادِي ، جَاؤُونِي شُعْثاً غُبْرَاً ، ضَاحِينَ ، جَاؤُونِي مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ، يَرْجُونَ رَحْمَتِي ، وَلَمْ يَرَوْا عَذَابِي ، فَلَمْ يُرَ يَوْمٌ أَكْثَرُ عَتِيقاً مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله عز وجل ليباهي الملائكة بأهل عرفات ، يقول : انظروا إلى عبادي جاؤوني شعثاً غبراً »[2] .

---

(١) الترغيب والترهيب (١٧٩٠) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٨٠٣٣) .

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ : وَقَفَ النَّبيُّ ﷺ بِعَرَفَاتٍ ، وَقَدْ كَادَتِ الشَّمْسُ أَنْ تَؤُوبَ فَقَالَ : « يَا بِلاَلُ ، أَنْصِت لِيَ النَّاسَ ، فَقَامَ بِلاَلُ فَقَالَ : أَنْصِتُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، فَأَنْصَتَ النَّاسُ ، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : مَعْشَرَ النَّاسِ ، أَتَانِي جِبْرِيلُ آنِفاً فَأَقْرَأَنِي مِنْ رَبِّي السَّلاَمُ ، وَقَالَ : إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ غَفَرَ لِأَهْلِ عَرَفَاتٍ ، وَأَهْلِ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَضَمِنَ عَنْهُمُ التَّبِعَاتِ ، فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ لَنَا خَاصَّةً ؟ قَالَ : هَذِهِ لَكُمْ ، وَلِمَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : كَثُرَ خَيْرُ اللهِ وَفَاضَ »[1] .

وروى الإمامُ مسلمٌ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللهُ عز وجل فِيهِ عَبْداً مِنَ النَّارِ ، مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمْ الْمَلاَئِكَةَ ، فَيَقُولُ : مَا أَرَادَ هَؤُلاَءِ ؟ »[2] .

إنَّ اللهَ يغفِرُ للحَاجِّ ، ومُبالغةً في إكرامِهِ يلقي في رُوعِهِ أنه قد غفرَ له ، لذلك يشعرُ الحاجُّ الصادقُ بأنّ اللهَ قد غفرَ له ، وأنه عادَ كيومِ ولدتْه أمُّه .

عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَا رُئِيَ الشَّيْطَانُ يَوْماً هُوَ فِيهِ أَصْغَرُ ، وَلاَ أَدْحَرُ ، وَلاَ أَحْقَرُ ، وَلاَ أَغْيَظُ مِنْهُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَمَا ذَاكَ إِلاَّ لِمَا رَأَى مِنْ تَنَزُّلِ الرَّحْمَةِ ، وَتَجَاوُزِ اللهِ عَنْ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ ، إِلاَّ مَا أُرِيَ يَوْمَ بَدْرٍ ، قِيلَ : وَمَا رَأَى يَوْمَ بَدْرٍ يَا رَسُولَ اللهِ ؟

---

(١) الترغيب والترهيب (١٧٩٦) .
(٢) مسلم (١٣٤٨) .

قَالَ : أَمَا إِنَّهُ قَدْ رَأَى جِبْرِيلَ يَزَعُ[١] الْمَلاَئِكَةَ »[٢] .

وروى الإمامُ الترمذيُّ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ الدُّعَاءِ ، دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ ، وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[٣] .

قال عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ : جئتُ إلى سفيانَ الثوريِّ عشيةَ يومِ عرفةَ ، وهو جاثٍ على ركبتَيه ، وعيناه تذرِفَانِ ، فالتفتَ إلي ، فقلتُ له : مَن أسوأُ هذا الجمعِ حالاً ؟ قال : الذي يظنُّ أنّ اللهَ لا يغفرُ له .

إنه موقفٌ عجيبٌ في عرفاتٍ ، يغطِّيه نباتٌ بشريٌّ ، مختلفٌ ألوانُه ، أغصانُه تلك الأيدِي المرفوعةِ بالدعاءِ إلى ربِّ الأرضِ والسماءِ ، يرى الحاجُّ بينَ يَدَيْهِ صورةً مصغَّرةً للمحشرِ العظيمِ يومَ القيامةِ ، وعليه أنْ يستعدَّ له مِنَ الآنَ ، لأنّ رحلةَ الحجِّ يعودُ منها الإنسانُ إلى وطنِه ، ولكنَّ المحشرَ العظيمَ يومَ القيامةِ لا يعودُ منه الإنسانُ إلى وطنِه ، إنها رحلةٌ قبلَ الأخيرة ، استعداداً للرحلةِ الأخيرةِ ، الناسُ جميعاً بلباسٍ مُوَحَّدٍ ، وبدعاءٍ مُوَحَّدٍ ، وبابتهالٍ مُوَحَّدٍ ، كلُّهم ضِعافٌ ، كلُّهم فُرَادَى ، نموذجٌ

---

(١) في شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٥٢٥) : [يزع بفتح الياء ، والزاي المنقوطة ، وعين مهملة ، أي يصفُّ الملائكة للقتال ، ويمنعهم أن يخرج بعضهم عن بعض في الصفِّ] قال ابن حبيب وليس كذلك إذا لو رأى ذلك لحبه ولكنه رآه يعيبهم للقتال والمعني يسمى وازعاص على آخرهم ومنه قوله تعالى ﴿وحشه . . . يوزعون﴾ أي يحبس أولهم .

(٢) مالك في الموطأ (٩٤٤) .

(٣) الترمذي (٣٥٨٥) ، ومالك (٥٠٠) ، والبيهقي في السنن الكبرى (٩٢٥٦) .

مصغَّر للرحلةِ الأخيرةِ ، لقد كان الحجُّ رحلةً قبلَ الرحلةِ الأخيرةِ ، فهو استعدادٌ للمغادرة من غير رجعة إلى الدنيا .

وفي رميِ الجمراتِ بعضُ الأسرارِ ؛ فلنبدأْ بالجمرةِ الكبرَى في اليومِ الأولِ ، قال بعضُ العلماءِ : هذا تكثيفٌ ، وحشدٌ في لغةِ العسكريين ، وابدأ بمواجهةِ الأكبرِ ، وكان عليه الصلاةُ والسلامُ يخصُّ الجمرتين الأولى والوسطى بتطويلِ الوقوفِ عندها للدعاءِ ، إنها ثلاثُ جَمراتٍ ، وبينهما مسافةٌ ، ليظَلَّ المؤمنُ واعياً تماماً ، لا ينامُ حتى لا يسقطَ سلاحُه ، بينما العدوُّ منه على مَرْمَى حَجَرٍ ، وعليه أنْ يعلَمَ أنّ المعركةَ مع الشيطانِ متعددةُ المواقعِ ، ومستمرةٌ ، وممتَدَّةٌ مع عمرِه ، لذلك ينبغِي أنْ تُرمَى ثلاثُ جمراتٍ في ثلاثةِ أيامٍ ، فمنَ تَعَجَّلَ في يومين فلا إثمَ عليه .

يقولُ الإمامُ الغزاليُّ رحمهُ اللهُ تعالى : « لا يحصلُ إرغامُ أنفِ الشيطانِ في أثناءِ رجمِه إلا بطاعتك للرحمنِ ، ومَن عادَ بعدَ الحجِّ إلى ما كان عليه مِنَ المعاصي والآثامِ ، فليعلمْ علْمَ اليقينِ أنَّ الشيطانَ هو الذي رَجَمه .

ولقد طارَ بعضُ العلماءِ في سماءِ الحجِّ ، وسَبَحوا في بحورِه الواسعةِ ، بل غاصُوا فيها ، فكانت لهم فيه لمحاتٌ وضيئةٌ .

قالوا عن الطوافِ : كأنّ الإسلامَ حَجَرٌ أُلْقِيَ فوقَ محيطٍ ، فتكونتْ منه دوائرُ حوْلَه متتابعةٌ متناميةٌ ، وهكذا بيتُ اللهِ الحرامِ ، فالطوافُ حولَ البيتِ طوافُ المُحِبِّ حوْلَ محبوبِه ، إنه توثيقٌ للعهدِ بين العبدِ وربِّه ، وتعبيرٌ عن حبٍّ عميقٍ لرمزِ التوحيدِ .

لقد استقطبَ البيتُ الحرامُ المؤمنين مِن قاراتِ الدنيا الخمسِ ، فجاؤوا نوعياتٍ مختلفةً ، تحمِلُ كلُّ جماعةٍ همومَ مجتمعِها ، جاؤوا ليعودوا في البعدِ الزمانيِّ إلى ماضي هذه الأمةِ المُشرق ، وفي البعدِ المكانيِّ إلى الأرضِ التي نزلَ فيها الوحيُ .

جاؤوا ليعودوا إلى المكانِ الذي ضمَّ هذه الرسالةَ الخالدةَ ، للتزوُّدِ بالدروسِ المفيدةِ التي تُعِينُهم على صلاحِ دنياهم وَفقَ منهجِ ربِّهم ، وصلاحِ دينِهم الذي هو عصمةُ أَمْرِهم .

لا تقومُ مصالحُهم الدنيويةُ ، ولا مصالحُهم الأخرويةُ إلا إذا عَظَّمُوا هذا البيتَ ، واصطلحوا مع اللهِ ، وأقاموا منهجَه في الأرضِ .

الحجُّ عبادةٌ زُيِّنتْ بمحاسنَ وآدابٍ ، وإذا كان الحجُّ ارتفاعاً عن شهواتِ الحياةِ الدنيا ومادياتِها ، وتدريباً للعبدِ على التخفُّفِ منها ، والاكتفاءِ باليسيرِ ، فلا يليقُ بالمُتَلبِّسِ بهذه العبادةِ أنْ ينشغلَ عنها بما نهى اللهُ تعالى عنه ، إنّه لا يكفي منك أنْ تُعرِض عن هذه المنهياتِ فحسبُ ، بل عليك أنْ تكونَ آمراً بالمعروفِ ، ناهياً عن المنكرِ .

إنّ حُسْنَ الخُلُقِ ، وطِيبَ الكلامِ ، وإطعامَ الطعامِ مِن أعظمِ القرباتِ التي يتقرَّبُ بها العبدُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ .

وإذا كان اقترافُ المعاصي محرَّماً في كلِّ حينٍ ، فإنّهُ في مكةَ ، وفي حالِ الإحرامِ أشدُّ تحريماً ، وهي أولى بالمنعِ ، والزجرِ ، والنهيِ عنها .

لا يُعقلُ ، ولا يُقبلُ أنْ يذهبَ الحاجُّ إلى بيتِ اللهِ الحرامِ قَبْلَ أنْ يتفقَّهَ في أركانِ الحجِّ ، وواجباتِه ، وسُنَنِه ، ومستحبَّاتِه ، وصفةِ حجَّةِ النبيِّ

عليه الصلاةُ والسلامُ ، وما ينبغي أنْ تكونَ عليه أخلاقُ الحاجِّ .

لا يُعقلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ تُؤدَّى هذه العبادةُ الجليلةُ أداءً بعيداً عن مقاصِدها وثمارِها .

لا يُعقلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ يعودَ الحاجُّ مِن أداءِ هذه الفريضةِ كما ذهبَ .

لا يُعقَلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ يُوجَدَ الحاجُّ في المشاعرِ المقدَّسة دونَ أنْ يشعرَ بأيّةِ مشاعرَ مقدسةٍ .

لا يُعقَلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ يتحرَّى الحاجُّ سنةً أو مستحباً ، ويرتكبَ مِن أجْلِها معصيةً ، أو أنْ يتجاوزَ فريضةً .

لا يُعقَلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ يحدِّثَك الحاجُّ عن كلِّ شيءٍ في الحجِّ إلا عن الحجِّ .

لا يُعقَلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ يرميَ الحاجُّ الجمراتِ تعبيراً عن معاداتِه للشيطانِ ، ويعودَ إلى بلدِه ليكونَ أُلعوبةً بينَ يَدَي الشيطانِ .

لا يُعقَلُ ، ولا يُقْبَلُ أنْ يقتَصِرَ أمْرُ اللهِ في هذه الفريضةِ على أنْ يأتيَ الحاجُّ مِن بلادٍ بعيدةٍ ليجلسَ في المشاعرِ المقدَّسةِ ، يأكلُ ، وينامُ ، ويتكلَّم في شؤونِ الدنيا ، إنّ أمْرَ اللهِ في هذه العبادةِ ليس كذلك ، وهو أعظمُ وأجلُّ مِنْ أنْ يكونَ كذلك ، أنْ تأتيَ إليه مِن بلادٍ بعيدةٍ ، لتُحَقِّقَ وجودَك الماديَّ في مكانٍ ، تمضِي هذا الوقتَ في غيرِ ما أُمِرْتَ به ، وليسَ هذا المستوى مِن الحجِّ هو الذي تقومُ به مصالحُ المسلمين في دنيَاهُم وأُخرَاهُم .

يجبُ أنْ نعلمَ العلمَ اليقينيَّ بأنّ الحجَّ لا يُكَفِّرُ الذنوبَ التي لم يَتُبْ

منها صاحبُها ، فالمقيمُ على ذنبٍ ، ولم يَتُبْ منه ، وهو مستمِرٌّ فيه ، فإنَّ الحجَّ لا يكفِّر هذا الذنبَ ، وإنّما الحجُّ كفارةٌ وأجرٌ للعبدِ التائبِ إلى اللهِ ، الراجعِ إليه ، الراجي رحمتَه وعَفْوَه ، والذي أَقْلَعَ عن ذنوبِه إقلاعاً لا رجعةَ بَعدَهُ .

والدليلُ على ذلك ما رواه الإمامُ مسلمٌ بإسناده إلى عَبْدِ اللهِ قَالَ : قَالَ أُنَاسٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ : « يَا رَسُولَ اللهِ ؛ أَنُؤَاخَذُ بِمَا عَمِلْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟ قَالَ : « أَمَّا مَنْ أَحْسَنَ مِنْكُمْ فِي الإِسْلاَمِ فَلاَ يُؤَاخَذُ بِهَا ، وَمَنْ أَسَاءَ أُخِذَ بِعَمَلِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالإِسْلاَمِ »[1] .

فمع أنّ الإسلامَ يَهْدِمُ ما كان قَبْلَه إلاّ أنه مَن أَساءَ في الإسلامِ جُوزِيَ بعملِه السيّئِ في الإسلامِ ، وما كان قَبْلَ الإسلامِ ، وكذلك الحالُ فيمنْ له معاصٍ لم يَتُبْ منها قَبْلَ الحجِّ ، فإنّ الحجَّ لا يهدِمُ هذه المعاصي ، وهذا يعني أنّ الحجَّ لا يفيدُ إلا التائبَ مِن الذنبِ ، والعائدَ إلى اللهِ ، الراجعَ إليه ، المقلعَ عن ذنوبِه ، وأمّا المقيمُ على معاصيه وذنوبِه ، المستمرُّ فيها فإنّ الحجَّ لا يهدِمُ ما كان قَبْلَه في هذه الحالةِ .

وقد وردَ أنه « من حجَّ بمالٍ حرامٍ ، فقالَ : لَبَّيْكَ اللهمَّ لَبَّيْكَ ، قال الله عز وجل له لاَ لَبَّيكَ ، ولا سَعدَيْك ، وحَجُّكَ مردودٌ عليك .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ ، يَعْنِي الْفَرِيضَةَ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ »[2] .

---

(١) مسلم (١٢٠) ، ابن ماجه (٤٢٤٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٨٦٩) .

وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ ، كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلا الْجَنَّةُ »(١) .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللهِ ، إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ ، وَإِنِ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ »(٢) ، وهذه مِيزةٌ لا تُقدَّرُ بثمنٍ ، أنْ تكونَ مُجابَ الدعوةِ .

مَن ماتَ ، ولم يجاهدْ ، ولم يحدِّث نفْسَه بالجهادِ ماتَ على ثُلمةٍ من النفاقِ ، فإنْ لم يُتَحْ للمسلمِ الجهادُ القتاليُّ ، فقد أُتيحَ له جهادُ النفسِ والهوى ، وأتيحُ له الجهادُ الدعويُّ ، وأتيح له الحج ، والحج نوع من الجهاد ، والدليلُ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ : « جِهَادُ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْمَرْأَةِ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ »(٣) ، وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « الْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ »(٤) ، وفي حديثٍ ثالثٍ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : قُلْتُ : « يَا رَسُولَ اللهِ ؛ عَلَى النِّسَاءِ جِهَادٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، عَلَيْهِنَّ جِهَادٌ لاَ قِتَالَ فِيهِ ، الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ »(٥) .

إنّ المسلمين يتّفقون في أصولِ الدِّينِ ، وفي المُحكَماتِ القطعيةِ التي

---

(١) أخرجه الترمذي في الحج (٨١٠) ، والنسائي في المناسك (٣٦١٠) ، وأحمد (٣٦٦٩) .

(٢) أخرجه ابن ماجة في المناسك (٢٨٩٢) ، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠١٦٨) ، والطبراني في المعجم الأوسط (٦٣١١) .

(٣) أخرجه النسائي في المناسك (٣٦٠٥) .

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٩٠٢) ، وأحمد في المناسك (٢٦٥٦٣) .

(٥) أخرجه ابن ماجه(٢٩٠١) ، وأحمد في المناسك (٢٥٣٦١) .

جاءَ الدِّينُ بها ، هم يؤمنون بإلهٍ واحدٍ لا شريك له في ذاتِه ، وفي أسمائِه ، وفي صفاتِه ، وفي ربوبيتِه ، وفي ألوهيتِه ، فهو المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه ، وهم يؤمنون بنبيٍّ واحدٍ ، هو خاتمُ الأنبياءِ والمرسلينَ ، جاءَ بأفضلِ الشرائعِ وآخرِها ، وهو واجبُ الاتباعِ إلى قيامِ الساعةِ ، ويتّجهون إلى قِبلةٍ واحدةٍ ، ويقرؤون قرآناً واحداً ، يقطَعُون كلُّهم بأنه محكَمٌ محفوظٌ مِن الزيادةِ والنقصانِ ، لم تَطُلْه يدُ التحريفِ والتبديلِ والتغييرِ في ألفاظِه ، ومجملاتِ معانيه ، ويصومون شهراً واحداً ، ويحجُّون بيتاً واحداً ، ويقفون في عرفةَ موقفاً واحداً ، تاريخُهم واحدٌ ، ومصيرُهم ومستقبلُهم واحدٌ ، حتّى إنّ التحدياتِ التي تواجهُ المسلمين هي تحدياتٌ واحدةٌ في الجملةِ .

إنّنا نجدُ الأذى الذي يوجَّهُ إلى المسلمين كلِّهم ، يوجَّه إليهم شعوباً وأمماً، بلا تمييزٍ بين أقوياءِ الإيمانِ وضعفاءِ الإيمانِ ، وبين العلماءِ والجهلاءِ ، وبين الصلحاءِ والفاسدين ، ومع كلِّ هذه المقوماتِ فهم متفرِّقون ، متنازعون ، بأسُهم بينهم ، تُفَرِّقهم الأهواءُ والمصالحُ ، وهذا يؤكِّدُ على الأمةِ ضرورةَ أنْ تعملَ على تحقيقِ معنى هذا الانتماءِ ، ومعنى تلك الوحدةِ .

ومِن أخطرِ توجيهاتِ النبيِّ الكريمِ في هذا الظرفِ الصعبِ الذي يُحَدِّقُ بالأمةِ العربيةِ والإسلاميةِ قولهُ ﷺ : « إِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ ، لاَ يُسَالِمُ الْمُؤْمِنُ دُونَ الْمُؤْمِنِ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللهِ إِلاَّ عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ»[1] .

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٣٣) .

أيْ : لا يَحِقُّ في المنهجِ الإسلاميِّ لفئةٍ أنْ تصطلحَ مع عدوٍّ بشكلٍ انفراديٍّ ، هذا وصفٌ دقيقٌ مِن قِبَلِ مبعوثِ العنايةِ الإلهيةِ لِمَا عليه المؤمنون ، أو لِمَا يجب أنْ يكونوا عليه في شتَّى أقطارهم ، وديارهم ، مِنْ تعاوُنٍ وتناصُرٍ وتعاطُفٍ ، فهم كالجسدِ الواحدِ نَصَحَةٌ متوادُّون ، وهم بنيانٌ واحدٌ يشدُّ بعضُهم بعضاً ، هم يَدٌ على مَن سواهم ، سِلْمُهُم واحدةٌ ، وحَربُهُم واحدةٌ ، هذا ما يَنبَغِي أنْ يكونَ عليه المؤمنون في شتّى أقطارِهم وأمصارِهم .

* * *

الأمطارُ

إن هطولَ الأمطارِ يوجب علينا أنْ نشكرَ اللهَ تعالى على نِعَمِهِ العظيمةِ ، وعطاياهُ الجزيلةِ وأن نعزو هذه النعم إلى الله تعالى ، لأن هذا من صميم الإيمان بالله ، فقد وردَ في الحديثِ القدسيِّ أنّ اللهَ عز وجل يقولُ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي ، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ؛ وَأَمَّا مَنْ قَالَ : بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي ، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ »[1] .

وهاكم هذا الخبرَ الذي يؤكِّدُ أنّ تقتير الله على عباده في الأمطار لا يمكنُ أنْ يكونَ تقنينَ عجزٍ ، كشأنِ البشرِ حينما يقننون ، ولكنه تقنينُ تربيةٍ وتأديبٍ ، كما يظنُّ المؤمنون .

---

(١) البخاري (٩٩١) ، مسلم (٧١) ، أبو داود (٣٩٠٦) ، النسائي (١٨٣٣) عن زيد بن خالد الجهني .

أعلمتْ وكالةُ الفضاءِ الأوربيةُ أنّ مرصدَ الفضاءِ الأوربيَّ العاملَ بالأشعةِ تحتَ الحمراءِ رَصَدَ غيمةً من البخارِ في الفضاءِ الخارجيِّ ، يمكنُ لها أنْ تملأ محيطاتِ الأرضِ ستينَ مرةً في اليومِ الواحدِ بالمياهِ العذبةِ .

وعلَّقَ أحَدُ علماءِ الفَلَكِ أنّ المرصدَ عَثَرَ على غيومٍ للبخارِ في أكثرَ مِن مكانٍ في الكونِ ، إلاّ أنّ هذه الغيمةَ التي اكتُشِفَتْ مؤخراً تُعَدُّ مصنعاً هائلاً لبخارِ الماءِ ، يمكِنُها أنْ تنتِجَ مِنَ الماءِ ما يكفي لملءِ جميعِ محيطاتِ العالَمِ بالماءِ العذبِ ستّينَ مرةً في اليومِ الواحدِ ، وهذا مصداقُ قولِ اللهِ تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[1] [الحجر : ٢١] .

وأمّا معنى التقتير التربَوِيِّ ، أو التأديبيِّ ففي قوله تعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى : ٢٧] ، وقوله تعالى :

﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [الجن : ١٦-١٧] ، وقوله سبحانه :

---

(١) قال الطبري في تفسير هذه الآية (١٤/ ١٨) : يقول تعالى ذكره : وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر لكل أرض ، معلومٌ عندنا حدُّه ومبلغُه . وقال القرطبي في تفسيره (١٠/ ١٤) : أي ولكن لا ننزله إلا على حسب مشيئتنا ، وعلى حسب حاجة الخلق إليه ، كما قال : ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ، ولكن ينزل بقدر ما يشاء ، وروي عن ابن مسعود والحكم بن عيينة وغيرهما أنه : ليس عام أكثر مطرا من عام ، ولكن الله يقسمه كيف شاء ، فيمطَر قومٌ ، ويحْرَم آخرون ، وربما كان المطرُ في البحارِ والقفارِ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

فالجاهلون والشاردون يُخَوِّفون أهلَ الأرض ، مرةً بنقصِ الغذاءِ ، وأخرى بنقصِ الماءِ ، وتارةً باقترابِ نضوبِ آبارِ النفطِ ، فيفتعلون حروباً مِن أجْلِ المياهِ تارةً ، وحروباً مِن أجْلِ القمحِ تارةً أخرى ، وأحْدثُوا هذه الحروبَ مِن أجلِ النفطِ ، وفَاتَهُمْ أنّ تقتير اللهِ عزّ وجل هو تقتير تأديبٍ ، وليسَ تقتير عجزٍ .

* * *

الظلامُ في الفضاءِ الخارجيِّ

كان عالِمٌ مِن علماءِ الفلَكِ في زيارةِ مركزِ إطلاقِ المراكِبِ الفضائيّةِ في بعضِ الدُّوَلِ المتقدِّمةِ ، وبينما هو في زيارةِ هذا المركزِ الذي كان على اتِّصالٍ مستمرٍّ بِمَركبةٍ فضائيّةٍ كانت قد أُطْلِقَتْ قبْل ذلك بقليلٍ ، إذ برائِدِ الفضاء يتَّصلُ بِمَركزِ انطلاقِ هذه المركبةِ ، ويقولُ : لقد أصبحْنا عُمْياً لا نرى شيئاً ، وكانتِ المركبةُ أُطلِقَتْ في وَضَحِ النّهارِ ، وبعْد وقتٍ قليلٍ تجاوَزَتِ الغِلافَ الجويَّ ، ودخلَتْ في منطقةٍ لا هواءَ فيها ، وأصبَحَ الجوُّ مُظْلماً ظلاماً كليًّا ، فصاحَ هذا الرائِدُ : لقد أصبحْنا عُمْياً لا نرى شيئاً ، فما الذي حَصَل ؟

الذي حصَل أنّ أشِعَّةَ الشّمسِ إذا وصَلَتْ إلى الغِلافِ الجويِّ تناثَرَ ضوءُها ، وتشتَّتَ بين ذرّاتِ الهواءِ وذرّاتِ الغبارِ ، وهذا ما يُعَبِّرُ عنه

علماءُ الفيزياءِ بانتثارِ الضّوءِ ، أو بِتَشَتُّتِ الضّوءِ ، إذ تنعكسُ أشِعّةُ الشّمسِ على ذرّاتِ الهواءِ ، وذراتِ الغبار فَتَجْعلُها مُتألّقةً ، وهذا الذي يُسمَّى في الدنيا : منطقة فيها أشعّةُ الشمسِ ، ومنطقة فيها ضوءٌ ، ولا شمسَ فيها ، كَجَوِّ المسْجِد ، فإنّه يَرى فيه بعضُنا بعضاً ، هناك ضوءٌ ، وليس فيه أشِعّةُ شمسٍ ، لأنّ الضّوءَ ينتثِرُ ، فلمّا غادَرَتْ هذه المركبةُ الغِلافَ الجويَّ انْعَدَمَ تناثُرُ الضّوءِ ، وأصْبحَ الفضاءُ مظلماً ، شديدَ الظّلامِ ، لا يُرى فيه شيءٌ .

لو عُدْنَا إلى كتابِ الله الذي نزلَ قبْلَ أربعة عشرَ قرناً ونيّفاً ، ووقتَها ما عرفَ أهلُ الأرضِ الصّعودَ إلى القمرِ ، وما عرفوا غزْوَ الفضاءِ بهذه العِبارةِ الفَجَّةِ ، ما عرفوا تجاوُزَ الغِلافِ الجويِّ ، ما عرفوا كلَّ ذلك ، لو عُدْنا إلى كتابِ اللهِ لوَجَدنا في هذه الآيةِ إعجازاً عِلْميًّا ، قال الله تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر : ١٤ـ١٥] .

هذا الذي قالَه رائدُ الفضاءِ : لقد أصبحْنا عُمْياً ، قد جاء به القرآنُ قبْلَ أربعة عشرَ قرناً ، أليس هذا دليلاً قَطْعِيًّا على أنّ هذا الكلامَ كلامُ خالقِ البشرِ ؟ عُرِفَتْ هذه الحقيقةُ قبلَ عشرِ سنواتٍ ، حينما عَرَفَ الإنسانُ الغلافَ الجويَّ واقْتَحَمَهُ ، وأُلْغِيَ تناثُرُ الضّوءِ ، ودَخَلَ في ظلامٍ دامِسٍ ، عرفَ كيفَ أنّ الفضاء الخارجي مُظلمٌ ظلاماً داكناً ، ولا يُرى في الفضاءِ إلا كوكبٌ متألّقٌ مِن دون أنْ ينتثِرَ الضّوءُ ، قال تعالى :

﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجر : ١٤ـ١٥] .

إنّ مِن خصائصِ الوحيِ إلى النبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ أنَّ دليلَهُ منه ، وأنّ الدليلَ يتَطَابَقُ مع المَدْلُولِ عليه ، فالوَحْيُ الذي جاء النبيَّ عليه الصلاةُ والسلامُ هو مِن عند اللهِ تعالى بِظَاهِرَةٍ صارخةٍ ، ألا وهي الإعجازُ ، فإنّ هذا الكلامَ يَعْجزُ عن معرفتِهِ الإنسانُ حينما نزلَ القرآنُ ، والآن مع التقدُّمِ العلميِّ بدَأَ العلمُ يكشفُ جوانِبَ قليلةً منه ، يؤكِّدُ هذا قولُ الله عز وجل :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

وهذه السِّينُ في قوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴾ للاستقبال ، حتى يتبيّنَ للمُعْرِضين ، وللمُنْكِرين ، وللمُشَكِّكين أنَّه الحقُّ ، أنَّه كلامُ اللهِ عز وجل .

لا شيءَ في الحياةِ يجبُ أنْ يسْتَحْوِذَ على فَهْمِنَا كفهْمِ منهجِ ربّنا ، كَفَهْمِ كتابِ اللهِ ، كفهْمِ أبْعادِه ، ومَدلولاتِه ، وحلالِه وحرامِهِ ، ووعْدِهِ ووعيدِهِ ، وآياتِهِ الكونيّةِ والتكوينيّةِ ، لأنَّه طريقُ سعادتِنا وهدايتِنا .

* * *